مساهمة المصادر الجغرافية في معرفة الماضي الأفريقي
كتاب المسالك والممالك للبكري نموذجاً

الاستاذة الدكتورة صباح الشيخلي
قسم التاريخ في كلية الآداب - جامعة بغداد

أدرك المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب منذ ما يقرب من (١٤) قرناً ضرورة التعرف والتعريف بدواخل القارة الأفريقية ، فجاءت كتاباتهم كثيرة ومتنوعة عرفوا فيها العالم على مناطق مجهولة تقع جنوب الصحراء الأفريقية في عملهم هذا متى بداية العصور الحديثة .

تحتل كتب الجغرافية والرحلات العربية طليعة قائمة مصادر دراسة تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء [١] . فليس غريباً أن تحتوي هذه الكتب على معلومات أصيلة وشاملة عن مناطق متعددة وجنسيات مختلفة في أفريقيا الغربية ، وليس غريباً أيضاً أن يوجه مؤلفوها اهتمامهم إلى التنظيمات السياسية والقضايا الاقتصادية والاجتماعية والعقائدية لسكان تلك المناطق ، فضلاً عن اهتمامهم بجغرافيتها . أن المعلومات من هذا النوع وفرتها كتب الجغرافيا والرحلات، اتاحت للباحثين رسم وصف عام عن تاريخ المناطق الواقعة جنوب الصحراء خلال عصور الازدهار الإسلامي .

كانت بداية تدوين الكتاب العرب ، وفي مقدمتهم الجغرافيين مع بداية دخول العرب المسلمين إلى مصر وبلاد المغرب . وإذا ما تركنا جانباً الإشارات المبكرة عن أفريقيا جنوب الصحراء والتي جاءتنا من القرنين ٢ – ٣ هجرية / ٨-٩ م مثل : إشارات الغزاوي والخوارزمي وابن خرداذبة ، نجد أن جغرافيين ورحالة من أهل المشرق قد دونوا معلومات أولية عن مناطق جنوب الصحراء بما فيها شرق أفريقيا وغربها . ففي مدونات اليعقوبي وابن حوقل [٢] معلومات نادرة وأصيلة عن غرب أفريقيا ، وفيما كتبه المسعودي اهتمام مبكر وأصيل بشرق أفريقيا [٣] .

علماً أن المخزن الكبير من المعلومات عن أفريقيا جنوب الصحراء وصلنا من المصادر العربية التي دونت في القرن ٥ هجرية / ١١م وما بعده .

وجاءتنا هذه المرة ليس من كتاب مشـــارقة وإنمـــا مـــن كتـــاب أندلســـيين ومغاربة [٤] ، فابتداءً من القرن ٥ هجرية / ١١ م نجد أن في مؤلفات هـــؤلاء أوصافـــاً عظيمة لمناطق بلاد السودان لا غنى للباحثين في تاريخ المنطقة عنها أبداً ، نذكر منـــهم البكري والادريسي ابن سعيد . وسأقصر بحثي على البكري لاعتقادي بانه يوفي التعريف بمساهمة الجغرافيين العرب المسلمين المبكرة والأصيلة في كتابة تاريخ أفريقيـــا جنـــوب الصحراء .

البكرى وأفريقيا الغربية :

" البكري أكبر جغرافي اخرجته الاندلس " بهذه العبارة ابتدأ الباحث الكبـــير كراتشوفسكي [٥] كلامه عن ابي عبيد البكري الاندلسي وهو محق بذلك . فـــالبكري دون شك علم من اعلام الجغرافية عند العرب ، وواحد من فحول الجغرافيين الاندلسيين فـــي القرن ٥ هجرية / ١١ م عاصر العذري وابن عبد البر (من أوائل جغرافيي الاندلـــس) كما عاصر كتابا مشهورين آخرين مثل ابن حزم وابن حيان وابن بسام ، والـــى هـــؤلاء العلماء الاندلسيين ينتمي مؤلفنا .

ينسب ابو عبيد الله بن أبي مصعب بن عبد العزيز بن ابي زيد محمد بن ايوب بن عمر البكري (من بكر بن وائل) الى بيت وصف بانه بيت شرف وامارة . كان لـــهذا البيت ماض مجيد في الجهاد العسكري العربي في الاندلس ، كما شغل اجـــداده منـــاصب عليا في الدولة العربية في الاندلس منها منصب القضاء . وقد اقام البكريون – أجداد ابـــي عبيد البكري – امرة مستقلة في ولبة وشلطيش على ساحل المحيط الاطلسي الى الغـــرب من اشبيلية بعد تلاشي الحكومة المركزية في الاندلس . لكن هذه الامـــارة لـــم تســـتطع الصمود امام الاخطار المحيطة بها ، فكانت نهاية امارة البكريين التي اســـتمرت حوالـــي ٤٠ عاما ، وذلك بسيطرة المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية عليها ، ممـــا اضطـــر آخـــر حكامها ابو مصعب عبد العزيز والد ابي عبيد البكري ترك امارته والرحيل الى قرطبة .

وفي قرطبة ، المركز الثقافي الكبير المزدهر ، اســـتقر ودرس البكـــري وذاع صيته وشهرته حتى توفي فيها في عام ٤٨٧ هجرية / ١٩٠٤ م .

تتلمذ البكري على يد جل علماء الاندلس أيامه ، فبرع في ميدان اللغـــة والأدب والجغرافية وغيرها ، ووصف من بين العلماء الموسوعيين [٦] .

ترك البكري جملة مؤلفات ، يخصنا منها كتابه الجغرافي " المسالك والممالك " الذي نال هو ومصنفه الآخر " معجم ما استعجم " شهرة عريضة [٧] .

يعد كتاب " السالك والممالك " كتابا جغرافيا شاملا تكلم فيه عن أنحاء المعمورة ، وعده بعض الباحثين "عملا اصيلا بكل معنى الكلمة " . فقد جمع البكري مادته من مصادر متعددة قديمة جغرافية وتاريخية – ذكر اسماء بعضها وأهمل الأُخرى . فبالاضافة الى المعلومات التي حصل عليها من التجار والرحالة ، فقد اعتمد البكري في تحرير مسالكه على الوثائق والمعلومات المعاصرة له [٨] . كما عد باحثون آخرون " المسالك " قمة التأليف الجغرافي في وصف البلدان عند العرب المسلمين في المشرق والمغرب لاتصافه بالشمول والدقة [٩] .

يهمنا في هذه الورقات من كتاب البكري " المسالك والممالك " ، الفصل الخاص بافريقية الغربية . والملاحظة الجديرة بالاعتبار هي ارتباط اهتمام الكتاب الاندلسيين بافريقيا جنوب الصحراء بالبكري . فنحن لا نملك ما يدل على ان احدا من اهل الاندلس قد كتب عن افريقيا الغربية قبل البكري ، بصورة موثوقة وواسعة . ولذا فان نصوص البكري في هذا الموضوع تعد بحق بداية لمرحلة ازدهار في التاليف العربي الاندلسي عن افريقيا جنوب الصحراء شاركه واكمل بعده في هذه لمرحلة جغرافيان اندلسيان هما الادريسي وابن سعيد .

(أ) محتويات الفصل الخاص ببلاد السودان في " كتاب المسالك "

ان طبيعة المادة الخاصة بافريقيا الغربية آلتي احتواها كتاب " المسالك والممالك " يمكن رصدها بالشكل الآتي : أفرد البكري بابا خاصا في مسلكه للحديث عن افريقيا الغربية اسماه " ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة واتصال بعضها ببعض والمسافات بينها وما فيها من الغرائب وسير أهلها " [١٠] . فهو يحدد في عنوان هذا الباب المنهج الذي يسير عليه في عرض موضوع " بلاد السودان " ويحصره بوصف عام لهذه البلاد مع التركيز على ما يلي : اشهر المدن السودانية ، الطرق والمسالك التي تربط مدن ومناطق بلاد السودان ببعضها وتحديد السافات بينها ، ذكر غرائب بلاد السودان ، والتطرق الى أحوال سكانها .

واذا نظرنا الى الجزء الخاص ببلاد السودان في مسلك البكري يتضح لنا انه سار في عرضه بالحديث عن الممالك السودانية وما تشمله من مدن دون محاولة لتبويب هذا الفصل ، باستثناء باي خاص افرده للملكة غانة بسبب شهرتها في أيامه .

ينتقل البكري في وصفه لبلاد السودان من مرحلة الى اخرى ، ولا يكاد يغدر مدينة او بلدا او قرية او جبلا او نهرا الا ذكره بتفصيل يدل على جهد كبير في البحث والاستقصاء ، كما فعل في بقية كتابه المسالك . وفي خلال وصفه لمدن ومناطق بلاد السودان يعطينا البكري الآتي :

(١) الموقع موضحا سعة المدينة او المنطقة او حدودها .

(٢) تحديد الوضع السياسي للمنطقة او المدينة ، وذلك بتثبيت تبعيتها السياسية وحاكمها .

(٣) بيان اصناف السكان ، وعرض ما تيسر له من معلومات عن عاداتهم وتقاليدهم وطبائعهم .

(٤) ذكر الثروة الزراعية والحيوانية والمعدنية وغير المعدنية في مناطق ومدن السودان.

(٥) التطرق الى اهم الصناعات .

(٦) التبسط في التجارة . اذ كان لهذا الجانب النصيب المهم فيما كتبه البكري عن بلاد السودان ، حيث ذكر الطرق والمسالك التجارية التي ربطت مدن السودان ومناطقه ، والطرق التي امتدت الى الشمال الافريقي . وتطرق الى السلع الواردة والصادرة من بلاد السودان . ولم ينس ان يذكر القارئ بالمراكز التجارية السودانية المهمة ، والتواجد العربي الاسلامي فيها . والى جانب ذلك فهناك اشارات عن طرق التعامل التجاري والاسعار من ب . ولم ينس ان يذكر القارئ بالمراكز التجارية السودانية المهمة ، والتواجد العربي الاسلامي فيها . والى جانب ذلك فهناك اشارات عن طرق التعامل التجاري والاسعار من بلاد السودان.

(٧) العناية بتاريخ المدن والمناطق السودانية . ولعل اهم قضية تاريخية شغلت اهتمام البكري ما يتصل بانتشار الاسلام والوجود العربي في بلاد السودان . فالبكري صاحب الفضل الاول والمتميز في توضيح طبيعة انتشار الاسلام في افريقيا الغربية

– كما سنرى – . وله استطرادات تاريخية طويلة وقصيرة عن الاسر الحاكمة في بلاد السودان وقوتها العسكرية وما الى ذلك .

(٨) الحديث عن عجائب الارض والمخلوقات في مناطق بعيدة لم يعرفها الناس بعد حق المعرفة .

ب – المصادر :

المعروف ان البكري لمن يغادر الاندلس ولم يسر في افريقيا ، ومع ذلك فان ما دونه عن هذه القارة غني بالمعلومات . لقد اعتمد مؤلفنا في جمع مادة " المسالك والممالك" الخاصة بافريقيا على مصادر مدونة وغير مدونة – كما ذكرنا سابقا – وفي الفصل الخاص ببلاد السودان يتضح ان البكري اعتمد على جملة مصادر هي :

(١) المصادر المكتوبة :

أفاد البكري ممن كتب قبله عن بلاد السودان . ويقع كتاب " المسالك والممالك " لابي عبد الله المعروف بالوراق (ت ٣٦٣ هجرية / ٩٧٣م) في مقدمة استفاد منها . اذ ذكر البكري صراحة ان معلوماته عن اودغست – المركز التجاري السوداني المهم – قد استقاها من " محمد بن يوسف " (١١) .

وعلى الرغم من ان البكري لم يشر الى المصادر المكتوبة الاخرى التي اعتمدها في تدوين مادته عن بلاد السودان ، فلا بد ان تكون من بينها كتب من سبقه من المشارقة بخاصة كتابات اليعقوبي وابن حوقل اللذين لهما قصب السبق في تسجيل معلومات أولية عم افريقيا جنوب الصحراء كما اشرنا آنفا . ويرجع هذا الى ان البكري عودنا انه يسند ما اقتبسه احيانا ، وقد لا ينسبه احيانا اخرى ، وفعل الامر نفسه بالنسبة لنقوله حيث كان ينقل النص احيانا ويتصرف فيه غالبا.

(٢) المصادر غير المكتوبة :

الى جانب المادة المدونة التي اعتمدها البكري في الجزء الخاص ببلاد السودان ، نجده قد دون معلومات كثيرة ومهمة ومعاصرة له مما يدل على ان ما كتبه في هذا الفصل يقوم أساسا على جهد المؤلف الشخصي ، كما يدل على نضج العمل الذي انجزه .

كان البكري يأخذ من افواه التجار والرحالة ، وقد شكل ما اخذه من هؤلاء قاعدة أساسية في كتاباته عن بلاد السودان . وبالرغم من ان اسماء مخبريه من التجار والرحالة غير معروفة عموما ، فهو يقول مثلا " اخبرني الثقة " ، " وحدث به جماعة من المسلمين الثقات " و" حدث جماعة " ، و" يقال " [١٢] . بيد انه كان يشير بين الحين والآخر الى اسم احد هؤلاء ، ففي حديث البكري عن مملكة غانه ، يبرز اسم " الفقيه " ابو محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة " ، كمخبر زوده بالمعلومات ، بخاصة عن المنطقة الواقعة الى شرق مدينة غانة (ما بين غانة وتادمكة) [١٣] وافاد منه البكري فيما يتعلق بالعجائب عن بلاد السودان [١٤] . اما عن مقاطعة " سامة " التي تقع على بعد ثلاثة ايام من غانة (وهي من أعمال مملكة غانة) فقد كان مخبر البكري هو " ابو عبد الله المكي " الذي زوده بمعلومات اجتماعية عنها [١٥] .

ولعل من نافلة القول الاشارة الى ان معلومات " المسالك والممالك" عن بلاد السودان ، كانت في معظم الاحيان معلومات معاصرة لأيام مؤلفة البكري . فما ذكره عن مدينة اودغست ودخول المرابطين اليها وسيطرتهم عليها تعود الى سنة ٤٤٦ هجرية / ١٠٥٤م [١٦] . وما ورد عمن مملكة التكرور – التي تقع في أعالي نهر السنغال – يرجع الى سنة ٤٤٨ هجرية / ١٠٥٦م [١٧] ، ويضيف القول بان أهل التكرور اليوم مسلمون [١٨] ومثل هذا ما ثبته البكري من معلومات عن غانة ، اذ انها تعود إلى سنة ٤٦٠ هجرية / ١٠٦٧م ، حيث يقول " واسم مليكهم اليوم وهي سنة ستين وأربع مائة تنكاسين " [١٩] .

يقف البكري في معلوماته عن بلاد السودان عند السنة الاخيرة (٤٦٠ هجرية) ، وهذا امر يسترعي الانتباه ، لان المؤلف توفي سنة ٤٨٧ هجرية / ١٠٩٤م ، أي انه عاش الى ما بعد سقوط مملكة غانة على يد الحاكم والقائد المرابطي ابو بكر اللمتوني وخضوعها للسلطة المرابطية سنة ٤٦٧ هجرية / ١٠٧٤ م ، غير ان مؤلفنا سجل مثل هذه الأحداث ولم يصلنا ما سجله .

بلاد السودان في كتاب " المسالك والممالك " / الوصف العام :

يبدأ البكري وصف بلاد السودان بحديثه عن الحدود الجنوبية للاسلام حيث أراضي قبيلة جدالة الصنهاجية ، فيقول : " ان الملاصقين لبلاد السودان بنو جدالة آخر الاسلام خطة وأقرب بلاد السودان منهم صنفانة بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام " (٢٠) .

ثم يتكلم عن المنطقة الواقعة في اعالي نهر السينغال من بلاد السودان وسكانها وهي التي تشمل القسم المجاور للمحيط الاطلسي.وبعد ذلك يسير بوصفه من الغرب الى الشرق متخذا من مدينة غانة نقطة لتحديد الاتجاهات . فمثلا يقول ان مدينة انبارة تقع " غربي مدينة غانة " (٢١) وعندما يتكلم عن المناطق الواقعة على نهر النيجر ، يبدأ بوصفها باعتبارها البلاد الواقعة شرق مدينة غانة فيقول : " واذ اسرت من غانة تريد طلوع الشمس تسير في طريق معمورة بالسودان الى موضع يقال له اوغام ، ثم تسير من هناك أربعة ايام الى موضع يقال له رأس الماس وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان " (٢٢) .

والملاحظ ان البكري شأنه شأن بقية الكتاب العرب يطلق على الأنهر التي تشق مناطق جنوب الصحراء الافريقية اسم النيل ، فيسمي نهر السنغال بالنيل ، ونهر النيجر بالنيل ، ويميز بينهما باعتبار ان الاول يمر باراضي مملكة التكرور ويصب في لمحيط الاطلسي ، والثاني يخرج من بلاد السودان قبل رأس الماء ثم يستدير عند مدينة تيرقي نحو الجنوب من بلاد السودان (٢٣) .

ويرسم البكري مراحل الطرق التي تربط غانة بالمناطق لواقعة غربها وجنوبها الغربي ، والمناطق الواقعة الى الشرق منها محددا مسافات هذه المراحل في معظم الأحيان . شمل وصف البكري على حوالي (٢٥) موضعا ما بين بلد ومدينة في بلاد السودان وهي على التوالي : مدينة صنفانة ومدينة التكرور ، من أعمال مملكة التكرور (٢٤) فمدينة سلى من مدن مملكة سلى ثم مدينة قلنبو ، ومدينة ترنقة ، وبلد زافقوا ، وكلها تقع ما بين سلى وغانة (٢٥) .

أما مدن وبلدان مملكة غانة فتشمل بالاضافة الى العاصمة غانة مدينة سامقندي ، بلد غرنقل ، مدينة غياروا ، مدينة يرسني ، بلاد بنو نفحارته ، بلد سامة ، مدينة انبارة ، مدينة كوغة والوكن ، وجميع هذه لمدن ولبلدان تقع غرب مدينة غانة باتجاه الجنوب [٢٦] ومن البلدان التي تقع في هذا الاتجاه ايضا بلد اسمه ملل على ضفة نهر السنغال المقابلة لمدينة يرسيني [٢٧] .

أما المواضع والمدن الواقعة الى شرق غانة وعلى نهر النيجر فيذكر البكوي منها : موضع اوغام ، وموضع راس الماء حيث نهر النيل الخارج من بلاد السودان (النيجر) ومدينة تيرقي ، بلاد سغمارة وهي من أعمال مملكة تادمكة [٢٨] . أما المدن الواقعة على الطريق الموصل بين غانة وتادمكة فهي سفنقو (آخر اعمال غانة) ، بوغرات ومدينة تادمكة . ثم مدينة كوكو وهي عاصمة مملكة كوكوو ، التي تقع على ضفة نهر النيجر المقابلة لبلاد سغمارة [٢٩] .

ومن الجدير بالذكر ان بعض المدن السودانية قد نالت عناية البكري أكثر من غيرها لشهرتها السياسية او التجارية ، فوصفها بصورة تفصيلية (منها مدينة غانة ، واودغست ، وتادمكة) ، مؤكدا على موقعها وحجمها وطراز البناء فيها ، وما تحتويه المدينة من المباني ، فضلا عن وصفها الجغرافي . فمدينة غانة مثلا كانت المركز لسياسي والاداري للملكة غانة السودانية الوثنية في أيامه . وهي متكونة من قسمين كبيرين احدهما حي للمسلمين والآخر للملك . والحي الأول كبير فيه (١٢) مسجدا أحدها مسجد جامع . وفي المدينة الائمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم . اما مدينة الملل فتقع على بعد (٦) أميال من الاولى وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة [٣٠] . وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين ، كما تحتوي هذه المدينة على مجلس حكم الملك وعلى دور العبادة التي تحتوي على الدكاكير التي يعبدها وثنيو غانة وعلى صور الملوك في المعابد . أما من الناحية الجغرافية فقد وصف غانة على انها مدينة سهلية حولها آبار عذبة يشرب ويسقي أهل غانة خضارهم منها [٣١] .

ومن الامور الفريدة والاصيلة التي جاء بها البكري وصفه لطراز البناء في مدينة غانة . فبنيان بيوتها من الحجارة والسقوف من خشب السنط . اما قصر الملك فقد كان يحتوي على قباب ويحيط به حائط كالسور (٣٢) .

أما مدينة اودغست فهي مركز تجاري نشيط في ايام البكري . وتتسم هذه المدينة بسعتها واسواقها العامرة . ومن الناحية الجغرافية يصفها البكري بانها رملية يطل عليه جبل كبير لا ينبت شيئا . وفيها نخيل كثيرة واشجار حناء ، وحول اودغست بساتين النخيل كما انها عامرة بالسكان وبها مساجد كثيرة وجام ، وهذه المساجد آهلة بمعلمي القرآن (٣٣) .

وعن طراز البناء في اودغست يقول البكري ان بها " مباني حسنة ومنازل رفيعة " (٣٤) . وفي حديثه عن مملكة تادمكة فهو لا يعدها مركزا سياسيا واداريا لمملكة تادمكة فحسب بل مركزا تجاريا ، وفيها سوق يجتمع فيه أهل تادمكة وغانة (٣٥) . ثم يصفها بانها مدينة كبيرة بين جبال وشعاب ، وان طراز بنائها احسن من مدينة غانة ، على حد قول البكري (٣٦) .

الوضع السياسي والاداري :

يتضح من كلام البكري ان بلاد السودان كانت مقسمة الى عدد من الممالك في ايامه وهي مملكة التكرور ، ومملكة سلى ، ومملكة زانقوا ، ومملكة غانة ، ومملكة غرنقل ، ومملكة بنو نفحارتة ، ومملكة ملل ، مملكة تادمكة ، ومملكة كوكو ، ومملكة الدمدم . وهذه الممالك بعضها كبير وبعضها صغير ، وفي هذه الحالة اما ان يكون مستقلا او تابعا سياسيا الى مملكة أُخرى أكبر.

أما اهم الممالك السودانية واكبرها شانا في ايام البكري في القرن ٥ هجرية / ١١م فمملكة غانة التي تسيطر على عدد من الممالك الصغيرة . وتبدأ حدود مملكة غانة شمالا من منطقة اودغست ، وكان محط صراع بين ملك غانة وقبائل الصحراء . وكما يذكر البكري فقد كانت اودغست تحت سيطرة الحاكم الصنهاجي تين يرؤتان ابن ويسنو بن نزار في عام ٣٥٠ هجرية / ٩٦١ م ، وان هناك اكثر من عشرين ملكا من ملوك السودان يدفعون له الجزية (٣٧) . ولكن حاكم غانة كان قد استرد سيطرته على مدينة

اودغست بعد ذلك . وأخيرا وفي عام ٤٤٦ هجرية عادت لضهاجة مرة اخرى بحملة عسكرية قادها عبد الله بن ياسين مؤسس الحركة المرابطية [٣٨] .

وتمتد رقعة مملكة غانة غربا باتجاه الجنوب الى مناطق مناجم الذهب . ويذكر البكري ان لغانة السيطرة على المدن والممالك الواقعة في الطريق المؤدي الى مناطق الذهب ، وهي سامقندي وغرنتل وصولا الى غياروا افضل مناطق الذهب في مملكة غانة [٣٩] . ومن اعمال مملكة غانة الواقعة باتجاه الغرب ، مدينة يرسيني وبلد سامة ، ودينة انبارة التي كان حاكمها المسمى " تارم " في صراع مع ملك غانة .كما كانت مدينة كوغة أكثر بلاد السودان ذهبا ، وهي تابعة لملك غانة وكذلك مدينة الركن [٤٠] .

أما من ناحية الشرق فحدود مملكة غانة هي أراضي مملكة تادمكة ويذكر البكري ان مدينة " سفنقو ثلاث مراحل وهي على النيل (النيجر) ، وهي آخر أعمال غانة ثم تصحب النيل الى بوغرات .... ومن بوغرات الى تيرقي ثم تسير في الصحراء الى تادمكة " [٤١] .

وان الامور التي ثبتها البكري اسم اثنين من حكام غانة ، احدهما المدعو تنكامنين الذي كان يحكم سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م ، وقد كان تولى السلطة في غانة عام ٤٥٥ هجرية / ١٠٦٣م ، ويصفه بانه شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان " [٤٢] . والحاكم الثاني هو المسمى بسي، وهو سلف الحاكم تناكامنين وخاله ، يقول عنه البكري : " تولى السلطة في غانة وهو ابن ٨٥ سنة ، وكان محمود لسيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين " [٤٣] . ومن الممالك التي جاء ذكرها في مسلك البكري الممالك الواقعة الى غرب مملكة غانة :

مملكة التكرور :

تقع أراضي مملكة التكرور قريبة من المحيط . وتبدا حدودها من نهاية بلاد الاسلام حيث ديار قبائل جدالة الصنهاجية الصحراوية . واشهر مدن هذه المملكة بالاضافة الى عاصمتها التكرور هي مدينة صنفانة الواقعة على نهر النيل (السنغال) والممتدة عمارتها الى البحر المحيط [٤٤] .

أما حكام هذه المملكة فلم يرد سوى ذكر واحد منهم وهو وارحابي بن رابيس المتوفى سنة (٤٣٢هـ) ، الذي كان سببا في انتشار الاسلام في بلاده [٤٥] .

حكام سلى

تجاور هذه المملكة مملكة التكرور وتقع ما بين المملكة الاخيرة وغانة . ويصف البكري ملك هذه المملكة بالسعة والقوة التي تكاد تقاوم مملكة غانة [٤٦] . وكانت هذه الممالك أيام البكري تحت سيادة مملكة التكرور .

مملكة الغرويين

لا يذكر عن حدودها شئ سوى انها تاتي بعد بلد زانقوا الواقع بين سلى والتكرور . كما لم يرد عن حاكمها سوى الاشارة الى علاقاته الطيبة مع الملوك المسلمين المجاورين له [٤٧] .

مملكة ملل

يشير البكري وهو يتكلم عن مناطق مناجم الذهب الواقعة الى الجنوب الغربي من غانه وعلى نهر السنغال الى وجود مملكة في الضفة الثانية من نهر السنغال مقابل مدن الذهب تدعى مملكة ملل وان حاكمها مسلم [٤٨] . ويرى الباحثون ان الاوصاف التي جاءت في تحديد موقع هذه المملكة تنطبق على مملكة مالي السودانية . وعلى ذلك يعد البكري أول من كتب عن هذه المملكة وعرفها [٤٩] .

ب . الممالك الواقعة الى شرق مملكة غانة .

مملكة تادمكة :

وتبدأ أراضيها من حدود مدينة سفنقو التي عدها البكري آخر المدن الواقعة ضمن سيادة مملكة غانة باتجاه الشرق . ومن مدن هذه المملكة بالاضافة الى المركز تادمكة مدينة تيرفي الواقعة على منحنى نهر النيجر ، ومن هذه المدينة (يرجع النيل نحو الجنوب في بلاد السودان [٥٠] .

ومن أعمال مملكة تادمكة التي يذكرها البكري بلد سمفارة الواقع على نهر النيجر المتجه جنوبا . اما الحدود الشمالية لمملكة تادمكة فغير واضحة عند البكري، ذلك لانه عندما يصف المناطق الواقعة الى الشمال من هذه المملكة اثناء وصفه الطريق الصحراوي الذي يمر عبرها ويربط تادمكة بمجاهل افريقيا لا يذكر هذه المناطق السياسية

والادارية . اما حكام تادمكة فيظهر من وصف البكري انهم لم يكونوا من السودان ، وانما من سكان الصحراء الملثمين (٥١) .

مملكة كوكو (جوى)

تبدأ حدود هذه المملكة بعد مسيرة ٩ مراحل جنوب مدينة تادمكة وعلى نهر النيجر المتجه جنوبا ، واراضيها تقابل اراضي بلدة سغمارة . ولا نعرف شيئا عن حكامها سوى ذكر لفند أو " فندا " (٥٢) .

يتحدث البكري عن وجود مملكة سودانية الى الغرب من مملكة كوكو وهي مملكة " الدمدم " ويصف سكانها بانهم متوحشون ياكلون من يصل اليهم . اما ملك هذه المملكة فيصفه البكري بانه ملك عظيم يخضع له عدد من الملوك من دون ان يعرفنا على هؤلاء الملوك أو ممالكهم (٥٣) .

نظم الحكم والادارة

يتضح لنا مما كتبه البكري عن ممالك السودان ان نظام الحكم في افريقيا الغربية كان ملكا وراثيا ، كما يظهر من حديثه عن مملكة غانة ان النظام الوراثي كان يقوم على وراثة ابن الاخت وليس الابن . ويعلل البكري ذلك من توفر اليقين لدى الملك من صلة ابن اخته النسبية به (٥٤) .

سجل لنا البكري ايضا وجود نظام انتخابي في احدى مناطق السودان وهي بلد زانقوا الذي يتم فيها انتخاب الحاكم من بين سكان البلد وبطريقة غريبة (٥٥) .

وفيما يتعلق بالوضع الاداري ، فقد جاء في وصف مملكة غانة – أكبر ممالك السودان – ان النظام الاداري كان مركزيا . فالمملكة مقسمة الى عدة مقاطعات ترتبط بملك غانة . ومن الاشارات الطريفة التي يذكرها البكري في هذا المجال ان بعض حكام المقاطعات التابعة لغانة كانوا في حالة تمرد على الملك منها حكام مدينة انبارة (٥٦) .

ويفهم ايضا ان الجهاز الاداري لمملكة غانة كان مؤلفا من مجلس حكم ووزراء ، وصاحب بيت مال ووالي لمدينة غانة (٥٧) . كما ان هناك مجلس مظالم يرأسه ملك غانة ، وقد ذكر لنا البكري في مسلكه وصفا فريدا ممتعا عن هذا المجلس ، ومن يحضر فيه من الامراء والوزراء ووالي مدينة غانة (٥٨) .

يهتم البكري بتدوين بعض المعلومات الخاصة بالجيش في بلاد السودان . فملك غانة مثلا كان يملك جيشا كبيرا عدته ٢٠٠ الف مقاتل [٥٩] .

أما صنوف الجيش فهي الفرسان والرماة . ويقدر البكري عدد الرماة بأربعين الفا [٦٠] . ويظهر ان صنف الرماة كان صنفا أساسيا ليس في جيش غانة وانما في جيوش المقاطعات السودانية ايضا . حيث يردد البكري اسم هذا الصنف وبراعة السودانيين فيه . اذ يذكر ان سكان مقاطعة سامة يوصفون بالحذق في الرماية وهم يمون بالسهام المسمومة [٦١] . وان " أهل سامفندي أرمى السودان بالنشاب " ، وكذلك بنو نفحارتة [٦٢] . أما الاسلحة المستخدمة في جيوش بلاد السودان ايام البكري فهي بالاضافة الى النشاب وسهامه فهناك السيوف والحجف [٦٣] .

انتشار الاسلام في بلاد السودان

كان اهتمام البكري كبيرا في موضوع انتشار الاسلام في بلاد السودان ، حتى يبدو ان همه الاول والكبير في وصفه لمناطق السودان ومدنه هو تتبع وتثبيت قضية اسلامها او بقائها على الوثنية .

يصف البكري عقائد سكان السودان بكلمة موجزة ودالة فيقول " ان ساير السودان على المجوسية وعبادة الدكاكير – والدكرور عندهم الصنم [٦٤] . بهذه العبارة عرفنا البكري على العقائد السودانية القديمة ، الا انه يستدرك ليقول ان الوضع ظل على ذلك حتى تولى وارجابي الحكم في مناطق الدكرور " فاسلم واقام عندهم شرايع الاسلام وحملهم عليها وحقق بصايرهم فيها وتوفي وارجابي سنة ٤٣٢ هجرية فاهل التكرور اليوم مسلمون " [٦٥] . كما كان لوارجابي الفضل في نشر الاسلام في المملكة المجاورة له وهي مملكة سلى ، والتي كان حاكمها ايام البكري يعمل على توسيع دائرة انتشار الاسلام في المناطق الوثنية المجاورة له [٦٦] . مما ذكره البكري نستطيع الاشارة الى النقاط الاتية : ربط البكري انتشار الاسلام في افريقيا الغربية ، بخاصة في بلاد التكرور – باسلام حاكمها وارجابي قبل النصف الثاني من القرن ٥هـ / ١١م . وكان لهذا الحاكم الفضل في نشر الاسلام بين رعاياه وتثبيت الشعائر الاسلامية ، بل ونشر الاسلام في المناطق المجاورة له .

ثبت البكري جهود حاكم مملكة سلى المسلم في توسيع رقعة الاسلام وانتشاره في المناطق المجاورة له .

يتتبع البكري انتشار الاسلام في مناطق السودان ومدنه الاخرى فيذكر ان المناطق المجاورة لسلى كانت ايامه لا تزال على وثنيتها ، منها مدينة قلندو التي لا تبعد اكثر من مسيرة يوم واحد من سلى [٦٧] .

بل ان المناطق التي تلي هذه المدينة والمزدحمة بالسكان امتدادا الى غانة كانت لا تزال مشركة . فاهل زانقوا كانوا " يعبدون حية كالثعبان العظيم " [٦٨] . أما غانة فاهلها " يعبدون الدكاكير في غابات حول المدينة ، وفي هذه الغابات حرس لا يمكن لاحد دخولها ولا معرفة ما بها " ، فهم مجوس عبدة الدكاكير [٦٩] .

كما يذكر البكري ان الشرك وعبادة الاوثان كان دين سكان المناطق الواقعة الى جنوب غانة حيث مناجم الذهب [٧٠] وهو ما يزال موجودا في المناطق الواقعة الى الشرق من مملكة غانة ، حيث سكان مملكة كوكو يعبدون الدكاكير [٧١] .

ان ما سجله البكري عن بقاء الشرك وعبادة الدكاكير في مناطق واسعة من بلاد السودان على أيامه جاء مقرونا بما يلي :

(١) وجود حكام مسلمين في مناطق الشرك الوثنية السودانية .

(٢) وجود المسلمين في مجموعات كبيرة او صغيرة الى جانب المشركين في مناطق ومدن السودان المختلفة .

ان هذين الامرين اللذين دونهما البكري يمثلان حقيقتان مهمتان جدا في قضية انتشار الاسلام في افريقيا الغربية . فالحكام المسلمون السودانيون لا نجدهم في التكرور وسلى بل في مدن ومناطق سودانية اخرى . فحاكم مدينة الوكن المسمى " قنمر بن بسي يقال انه مسلم يخفي اسلامه " [٧٢] . كما كان ملك كوكو مسلما يعيش في حي اسلامي في حين ان سكان مملكته مشركون [٧٣] . اما ملك ملل (مالي) فكان مسلما يعرف (بالمسلماني) . ويسرد لنا البكري قضية اسلامه على يد احد المسلمين المقيمين في بلاده ، واخلاص هذا الحاكم للاسلام واقامته للفرائض مع بقاء اهل مملكته مشركين [٧٤] .

أما مسألة التواجد الاسلامي في مدن السودان ، فالى البكري يعود الفضل في تسجيل هذا التواجد بصورة تفصيلية . فاذا تركنا جانبا مدينة اودغست – المركز التجاري السوداني المهم الذي اصبح جزءا من بلاد الاسلام ايام البكري ، بفضل حملة عبد الله بن ياسين العسكرية سنة ٤٤٦ هجرية ، والتي انهت سيطرة مملكة غانة عليه وجعلته ينتمي عقائديا وسياسيا الى الاسلام ، فقد عرفنا البكري بقضية الوجود الاسلامي في مدينة غانة عاصمة مملكة غانة الوثنية لاول مرة . فهو يصف بصورة تفصيلية وممتعة الحي الاسلامي الذي كان يشكل نصف مدينة غانة ، حيث يسكنه المسلمون وفيه (١٢) مسجدا منها مسجد جامع واحد ، وهذه المساجد عامرة بالائمة والراتبين والفقهاء وحملة العلم [٧٥] . كما ثبت البكري قضية الوجود الاسلامي في الحي الثاني من مدينة غانة ، وهو مدينة الملك المسماة بـ (الغابة) ، حيث اشار الى وجود مسجد يصلي فيه المسلمون الزائرون او المقيمون في هذا القسم من مدينة غانة . واكد بان الطبقة الادارية التي تعمل في بلاط الملك – من الوزراء وصاحب بيت المال – هم من العرب [٧٦] .

ان الوجود العربي الاسلامي في مناطق غانة كان قديما كما يصفه البكري ، ويعرض لنا رواية في هذا المجال – وان لم يكن متاكدا من صحتها – حيث يقول : يقال ان قسما من جنود الحملة العسكرية التي ذهبت الى مناطق بلاد السودان أيام الامويين قد استقر في غانة ولا يزال احفادهم موجودين في مدينة غانة يسمون بالهنيهين ، وكذلك في مدينة سلى ويسمون بالفامان وهم بيض الوجوه [٧٧] .

ولا يقتصر الوجود العربي الاسلامي على هاتين المدينتين الكبيرتين فحسب ، بل نجده قائما في مناطق ومدن اخرى من بلاد السودان منها مدينة كوغة الواقعة على بعد (١٥) مرحلة عرب غانة ، اذ كان اهل هذه المدينة مسلمين ، بينما كان ما يحيط بها مشركين ، كما نجد المسلمين في مدينة ملل [٧٨] . ووصل المسلمون الى مدينة مسلمة وهي غرب غانة ومن أعمالها [٧٩] .

أما المناطق الواقعة على نهر النيجر شرق مملكة غانة – فسكانها مسلمون ايام البكري وهم من قبيلة جدالة ، وكذلك سكان مدينة تادمكة فكانوا مسلمين من ملثمي الصحراء [٨٠] . ووجد العرب في المناطق الواقعة على نهر النيجر الذي ينحني باتجاه

الجنوب من بلاد السودان . ففي مدينة كوكو عرب يسمون البزركانيين ، وكان للمسلمين فيها حي خاص يقيمون فيه غير حي الملك [٨١] .

اثار ما كتبه البكري عن انتشار الاسلام والوجود العربي في مناطق افريقيا الغربية ومدنها اهتمام الباحثين المحدثين ، وكان اول من نبه بعض المستشرقين الى ان الاسلام في افريقيا الغربية انتشر بين حكامها اولا ، اذ بينما كان الحكام مسلمين فقد كان السكان مشركين وعزوا هذا الى الفوائد الاقتصادية التي يجنيها الحكام من اعلان اسلامهم ، وذلك عن طريق جذب النشاط التجاري العربي الاسلامي الى ممالكهم [٨٢] .

ان نصوص البكري التي اوهمت بعض الباحثين بكون ان الاسلام قد انتشر في بلاد السودان بين الطبقة الحاكمة من المجتمع ، ثم اسلم بعد ذلك السكان ، هي نفسها التي توضح لنا ان انتشار الاسلام في مناطق ومدن السودان قد حدث بين كل شرائح المجتمع . وهي التي تؤكد ايضا ان الوجود العربي الاسلامي في بلاد السودان قد جرى مع وجود الممالك السودانية الوثنية [٨٣] .

وعلى اية حال ، فمع ان نصوص البكري تثبت ان انتشار الاسلام الواسع في بلاد السودان سبق اسلام الحكام فيها ، الا ان الذي لا يرقى اليه الشك ان اسلام الحكام له نصيب وافر في اتساع دائرة الاسلام بين الناس في تلك المناطق ، التي ارتبطت بدورها ببلاد الاسلام سياسيا ، وهذا ما تؤكده نصوص البكري ذاتها [٨٤] .

الحياة الاجتماعية :

التركيب السكاني :

يتكون سكان مناطق بلاد السودان التي كتب عنها البكري في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي مما ياتي :

(أ) السودان

وهم على ما يبدو قبائل متعددة متنوعة [٨٥] لم يذكر للنا البكري اصنافها واقسامها ، ولكنه سجل لنا مناطق انتشارها . ففي بلاد التكرور وسلى وغانة تسكن قبائل من السودان ، كما وجدت هذه القبائل الى غرب غانة باتجاه الجنوب ، وفي المناطق الواقعة الى شرق غانة وعلى نهر النيجر [٨٦] .

العرب والمسلمون

يشكل العرب والمسلمون جزءا مهما من التركيب السكاني لبلاد السودان ، ويحدد البكري اماكن تواجدهم . ففي اودغست مثلا سكن العرب المشتغلون بالتجارة وشاركهم في سكناهم من قبائل المغرب – قبيلة زناتة في القرن ٥ هجرية / ١١م [٨٧] ويشير البكري وهو يتحدث عن دخول عبد الله بن ياسين الى اودغست سنة (٤٤٦ هجرية) ، الى ان سكانها كانوا من العرب وزناتة [٨٨] .

وكما اشرنا آنفا ، فان الوجود العربي في سلى وغانة – كما يقول البكري – كان قديما ، ويستشهد بوجود العرب الغامان في سلى والهنيهين في غانة [٨٩] . كما وسجل لنا البكري الوجود العربي في المدن والمناطق الواقعة بين غانة ومناطق الذهب في جنوبها الغربي مثل غياروا ويرسني وسامة [٩٠] .

قبائل المغرب

من العناصر السكانية التي نجدها في بلاد السودان بعض من قبائل المغرب وصحاريه . اذ استقرت بعض قبائل زناتة في اودغست وعملت في التجارة ، وشهدت غانة استقرار جماعات من قبائل المغرب ، الا ان البكري لم يصرح بذكر الاخيرة [٩١] .

وكان لقبائل الصحراء الصنهاجية وجود في المناطق الواقعة الى شرق غانة وعلى نهر النيجر ، ويشير البكري بالذات الى قبيلة مداسة [٩٢] . ويبدو ان تأثير هذه القبائل قد وصل الى مدينة تادمكة ، بدليل ما اشار اليه البكري الى ان سكانها مسلمون يتنقبون كما يتنقب سكان الصحراء [٩٣] .

الملابس

اهتم البكري بتسجيل عادات اهل السودان في اللباس ، حيث اشار الى ان اللباس هناك يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية من جهة ، وبما تركه العرب المسلمون من جهة اخرى .

كان لباس عموم اهل السودان – كما يقول البكري – هو الملاحف وثياب الجلود – وغير ذلك ، بقدر جدة الانسان منهم [٩٤] ، الا انه يخص ملابس أهل غانة بالقول " لا يلبس المخيط من اهل دين الملك غيره وغير ولي عهده وهو ابن اخته ، ويلبس ساير

الناس ملاحف من القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم [٩٥] . أما المسلمون من بلاد السودان فيلبسون الثياب المخاطة على ما يبدو وهي مصنوعة من القطن والنولـــى [٩٦] . وثبت البكري الوان الثياب عموما بالاحمر والاصفر والازرق [٩٧] .

ولم ينس البكري ذكر لباس الراس ، الذي كان متأثرا بما عند العرب المسلمين فقد كان لملوك السودان " الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة " [٩٨] .

بعض العادات والتقاليد

يشير البكري الى بعض عادات وتقاليد المجتمعات السودانية اذ يذكر مثـلا ان جميع أهل غانة يحلقون لحاهم ، بينما تحلق النساء رؤوسهن [٩٩] ويتحلى رجال الســودان بحلي النساء ومنهم الملوك اذ كان ملك غانة يلبس الحلي " في العنق والذراعين " [١٠٠] .

أما الطعام فنجد ان هناك اشارة تفصيلية واحدة خاصة بطعام اهل تادمكـــة ، حيث اشار البكري الى ان طعامهم هو اللحم واللبن وما تنبته الارض ، وما كان يجلـــب اليهم من الذرة وسائر الحبوب [١٠١] .

ومن العادات الوثنية التي سجلها البكري ما ذكره عن بلد سامة حيـث كـان فيها الابن الاكبر يرث مال الاب كله [١٠٢] . ونقل ايضا عادات تخص الحكم بالســارق . ففي بلاد ترنقة ومدينة قلنبو يخير صاحب السرقة ببيع السارق او قتله ، وحكمـــهم فـي الزاني ان يسلخ جلده [١٠٣] . وكان هناك حم الماء في بلاد غانة : " اذ ان من ادعى عليه بمال أو دم او غير ذلك عمد امينهم الى عود فيه حراقة ومرارة ورقّة وصب عليه قـدرا من الماء وسقاه المدعى عليه فان رماه من جوفه علم انه برئ وحكم بذلك وان لم يرمـــه وبقي في جوفه صحت الدعوى عليه " [١٠٤] .

ومن العادات الوثنية التي سجل البكري اعتقاد اهل بلاد السودان المشـــركين بحياة ما بعد الموت ، ولذا فانهم يدفنون مع الميت حليه وسلاحه واطعمة واسرجة ورجالا يخدمونه ، وهم يذبحون لموتاهم ويقربون لهم الخمور [١٠٥] .

ومما يذكر ان البكري ذكر لنا الكثير من عجائب الارض والمخلوقات ، وهي مبثوثة فـي صفحات الفصل الخاص ببلاد السودان .

الحياة الاقتصادية

نالت الانشطة الاقتصادية المتنوعة التي مارسها سكان افريقيا الغربية اهتمام البكري ، وبخاصة في مجال الزراعة والصناعة والتجارة .

النشاط الزراعي

مارس أهل بلاد السودان الزراعة لوفرة المياه عندهم ، واعتمدوا في زراعتهم على مياه الانهار (النيجر والسنغال) ، وعلى الامطار ولذلك فهم يزرعون مرتين في السنة – مرة على مياه الامطار ، واخرى على مياه الانهار (١٠٦) . وجرى اعتماد مماثل على الآبار العذبة في سقاية المزروعات ايضا ، فاهل غانة مثلا استخدموا آبارهم العذبة ليس للشرب فقط بل ولسقي الخضروات (١٠٧) . اما سكان اودغست فقد اعتمدوا على الآبار في سقي مزروعاتهم مستخدمين بذلك الدلاء (١٠٨) .

اهتم البكري بالزرع ، وحرص على ذكر اسماء بعض المحاصيل ووصف الاشجار وثمارها . فمن المحاصيل التي كان يزرعها اهل بلاد السودان القمح ، ويبدو ان زراعته كانت محددة لانه كان طعام الملوك وأهل اليسار (١٠٩) . اما محصول الذرة فقد زرع على نطاق واسع لانه كان غذاء عامة الناس ، ونجد له ذكرا في اودغست وسلى وفي المناطق الواقعة الى شرق غانة (١١٠) . ومن المحاصيل التي نجدها في بلاد السودان القطن وقد اشتهر اهل ترنقة بزراعته ، حيث كان لا يخلو دار من دورهم من شجرة قطن (١١١) . وزرع اهل اودغست النخيل واشجار التين والحناء التي كانت غلتها كثيرة في هذا الاقليم (١١٢) . وأشار البكري الى وجود زراعة الخضار في بلاد السودان من دون تحديد لاسمائها وأنواعها (١١٣) .

من الأشجار التي تنمو في بلاد السودان اشجار الابنوس ذات النوعية الجيدة في غابات غانة وسلى (١١٤) ، وكذلك اشجار الاراك التي نجدها في غابات غانة ، ومن شجرة تسمى تدموت ولها تمر كالبطيخ داخله شئ يشبه الفند تشوبه حلاوة – حمضة (١١٥) . ومن الاشجار الي اشار البكري الى نموها في بلاد السودان " شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزي تنبت في الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف ابيض تصنع منه الثياب والاكسية ولا تؤثر فيه النار (١١٦) .

حرص البكري أيضا على ذكر الثروة الحيوانية المتوفرة في بلاد السودان وهي الغنم والبقر ، ونجده بوفرة في اودغست حيث تباع عشرة كبوش او اكثر بمثقال واحد [١١٧] . كما نجد الابقار بكثرة في سلى ، على حين يكثر المعز في يرسني غرب غانة ، وتوفرت الخيول في غانة ، وربى اهل السودان دودة القز ، كذلك النحل ، ولذا يتوفر لديهم العسل الكثير [١١٨] .

ومن الحيوانات التي جاء ذكرها عند البكري السلاحف ، ومنها السلاحف العظام التي وجدت في تيرقي شرق غانة [١١٩] كما وجدت الزرافات والفيلة في غابات غانة ، وفي المدن الواقعة الى غربها مثل غياروا وغرنتل [١٢٠] . وتحدث البكري عن حيوانات تعيش في مياه السنغال في بلاد سلى ، حيث يقول وهو يتحدث عن موضع يقال له صحافي : " وفيه حيوان يعيش في الماء يشبه الفيل في عظم خلقته وفنطيسته وانيابه يسمونه قفوا ، وهو يرعى في البراري ويأوي الى النيل وهم يميزون موضعه في النيل بتحرك الماء على ظهره فيقصدون بمزاريق حديد قصار في اسافلها حلق قد شدت فيها الحبال المديدة فيرمونه بالعدد الكثير منها فيغوص ويضطرب في اسفل النيل فاذا مات طفا على الماء فيجذبونه واكلوا لحمه وصنعوا من جلد هذه الاسواط " [١٢١] .

النشاط الصناعي

سجل البكري اسماء بعض الصناعات التي مارسها سكان بلاد السودان . ويأتي في مقدمتها صناعة المنسوجات وهي تصنع عادة من القطن ، وكانت-مدينة ترنقة (غرب غانة) مركزا لصناعة " الارز المسماة بالشكيات ... وهي اربعة اشبار بمثلها " من القطن الذي يزرع في بلادهم [١٢٢] . وتم صنع الثياب والاكسية المصنوعة من ثمار شجر التروزي الذي هو اشبه بالصوف الابيض ، وليس للنار أي تاثير عليه مدى الدهر ، وهي من المنسوجات الغريبة والفريدة [١٢٣] .

ومن الصناعات التي اعتمدت على المواد المتوفرة في بلاد السودان، صناعة الاسواط التي اتخذت من جلد الحيوان المسمى " قفوا " الشبيه بالفيل ، والذي يعيش في نهر السنغال مادة لها ، وسميت هذه الاسواط " بالسريافات " وكانت تصدر الى اماكن عديدة [١٢٤] .